والظاهر أن هذه الصورة القاتمة للإنسان قد استهوت الإنسان فى كل زمان ومكان ، فلم يعد الناس يبدون أى استغراب لما تقع عليه أعينهم من أفعال بشرية دنيئة كالحقد والحسد والغيرة والضغينة والشهوة والكذب والرياء والافتراء ، بل أصبح من المألوف أن يحكم الناس على هذه الأفعال وغيرها بقولهم : « تلك سنة البشر » ! . وإن الصحف لتطالعنا كل يوم بأنباء الجرائم والآثام والزلات والشرور التى يرتكبها البشر ، فترى الناس يطالعون هذه الأنباء بشىء من الألفة والاعتياد ، وكأن ما يستغربونه على البشر إنما هو أن يأتوا من الأفعال ما ليس كذلك ! ويشهد الناس من الروايات والأفلام ما يصور أحط الغرائز البشرية ، فتراهم يبدون استحسانهم لما فى تلك الأعمال الفنية من واقعية ، ولسان حالهم يقول : « لشد ما هى صادقة ، فإنها لتنطق بضعف الإنسان وحقارة البشرية » ! وهكذا ألف الناس أن يتقبلوا وصف الروائيين لبنى البشر باعتبارهم أنانيين ، مرائين ، وضيعين ، زناة ، حقراء ، أنذالا ، خطاة ، ملوثين بكل إثم[1] !

وهذا واحد من كتابنا المحدثين فى مصر يتحدث عن الإنسان بصراحة فيقول : « يخيل لى أن الشرف والنزاهة وعفة اليد وسائر ما يجرى هذا المجرى ، مما لم يركب فى طبع الإنسان ولم يفطر عليه ؛ ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الإنسان بطبعه مخلوق غير شريف . والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من الأوامر والنواهى والأقاصيص وما إليها مما يقصد به الحث على هذه الفضائل ومجانبة أضدادها . ولو أن الإنسان كان كذلك بفطرته وكان الأغلب والأعم فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيهاً شريفاً لما احتاج الأمر إلى كل ما فى هذه الكتب مما أشرنا إليه »[2] . ويمضى الكاتب النابه فى تصوير فساد الطبيعة البشرية ، إلى أن يقول فى سخرية لاذعة : « والناس فى العادة أكثر ولعا بالكلام على فساد ذمم سواهم . وكثيراً ما يخيل لى إذ أحادث واحداً من سواد الناس فى أمثال هذه الموضوعات أنى وإياه الرجلان الشريفان فى هذا الكوكب الحافل بالأنذال ! »[3] .

---

(1) Simone de Beauvoir : « L'Existentialisme et la Sagesse des Nations, » 1948, pp. 17 – 21.

(٢) و (٣) إبراهيم عبد القادر المازنى : « قبض الريح » ، المطبعة العصرية من ٢٠٩ ــ ٢١٣

ملخص التعريفات: فإذا ما شئنا تلخيصا لهذه التعريفات المتباينة، كان فى وسعنا أن نصف الفلسفة بأنها النشاط الذى يسعى فيه الناس إلى فهم طبيعة الكون، وطبيعة أنفسهم، والعلاقات بين هذين العنصرين الأساسيين فى تجربتنا. وهكذا تكون الفلسفة بحثا منظما عن المعرفة، نقوم به عن طريق التفكير المنظم فى كشوف العالم، ونتائج المؤرخ، ورؤيا الفنان والشاعر والمتصوف، مع الجمع بين هذه كلها وبين تجربتنا اليومية الشخصية. وتقتضى هذه الأفكار المنظمة من جانبها تحليلا دقيقا لقدرة الذهن على اكتساب المعرفة، بحيث إن جزءا أساسيا من النشاط الفلسفى يتألف من دراسة مصادر المعرفة البشرية ومناهجها وحدودها. ولما كانت المعرفة توصل إلى الغير وتسجل عادة، فإن هذا بدوره قد يؤدى إلى تحليل لوسائل الإنسان فى الاتصال بغيره، ولا سيما اللغة.

إننا عندما نتفلسف نحاول الإجابة عن الأسئلة التى تطرأ بأذهان الناس جميعا فى وقت ما، عن طبيعة الحياة، ومعناها، وقيمتها. وهكذا فإن موضوع الفلسفة هو طبيعة الوجود، وطبيعة التجربة، وأخيراً، العلاقة التى تربط بين الإنسان وذهنه وبين بقية الكون. فالسعى الفلسفى هو فى أساسه سعى وراء معرفة شاملة عن طبيعة التجربة ومعناها وقيمتها.

❁ ❁ ❁

مشكلات الفلسفة

سرعان ما يتضح لنا، عندما نخوض ميدان الفلسفة، أن دراسة هذا الموضوع تقتضى قبل كل شىء الإلمام بمشكلات معينة. وسرعان ما ندرك أن الفلسفة تدور حول هذه المشكلات الرئيسية، ثم نكتشف بمضى الوقت أن هذه المشكلات وحلولها المتعددة هى ذاتها الفلسفة. والواقع أن تاريخ هذا الميدان هو إلى حد بعيد سجل للإجابات المختلفة التى وضعت لنفس المجموعة من الأسئلة التى تتكرر دائما. ولقد تعددت هذه الإجابات بقدر ما تعددت الأذهان التى وضعتها، وبلغت من التباين حداً يصعب معه أحيانا الاعتقاد بأن المقصود منها هو أن تكون إجابات لنفس المجموعة من المشكلات. ومع ذلك فهناك من وراء هذا كله لب عميق من المشكلات الدائمة التى ناضلت حولها أجيال متعاقبة من المفكرين. فالمجتمعات تتغير، والمدنيات تنشأ وتنهار، ولكن كل عصر وكل مجتمع تقريبا، يخلف وراءه من الآثار ما يكفى لإثبات أنه قد صارع بدوره مع المشكلات القديمة جدا، والباقية على الدوام، للفلسفة. وسوف نعالج معظم هذه المشكلات الكبرى بشىء من التفصيل فى الفصول القادمة، ولكن قد يكون من المفيد هاهنا أن نقدم وصفا موجزا لبعضها، ما دامت هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها تكوين فكرة عن نطاق الفلسفة وأهدافها.